مركز تكامل للدراسات والأبحاث

دراسات محكمة

جدلية الغرب والشرق: محاول في تجاوز البارانويا المزدوجة

قراءات في كتاب "مقدمة في علم الاستغراب" للمفكر العربي حسن حنفي

فوزي أشن

دكتورفي القانون العام العلوم السياسية

17 مايو 2026

ALL RIGHTS RESERVED

جميع الحقوق محفوظة

ملخص

يعتبر كتاب "مقدمة في علم الاستغراب" مشروعا فكريا يتوخى قراءة الغرب، كرد فعل على خطاب المركزية الغربية أو الأنوية الأوروبية المتضخمة، لكن هذه المرة بدون استغراب أو دهشة أو صدمة نفسية، ولكن بوعي كامل بضرورة تفكيك هذه السردية الغربية القائمة على أسطورة الرجل الأبيض المنقذ من الضلال والتخلف من جهة، وبأهمية تبني منهجية علمية لقراءة الآخر الغربي كموضوع، من خلال وضع المسافة الضرورية بين الأنا الدارسة (العربية الإسلامية) والموضوع المدروس (الغرب) تحقيقا للموضوعية المعرفية والتحرر من طوق تحيزات الخطاب الأيديولوجي المزدوج.. وتتشكل بنية الكتاب من ثلاث محاور أساسية: تكوين الوعي الأوروبي وبنية الوعي الأوروبي ثم مصير الوعي الأوروبي، بالإضافة إلى فصل أول بمثابة مقدمة نظرية معنونة بماذا يعني علم الاستغراب؟ وتتوزع المحاور الثلاثة على سبعة فصول تستعرض تاريخ الفكر الغربي ومدارسه الفلسفية، بداية من مصادره اليونانية والرومانية في العصر الكلاسيكي وصولا إلى المرحلة المعاصرة في القرن العشرين، فضلا عن تحليل وعرض الأسس الابستمولوجية والمنهجية التي يتحرك بوسطتها الوعي الأوروبي.

الكلمات المفتاحية: الاستغراب – الاستشراق المعكوس - الوعي الأوروبي- الأنوية الأروبية- التراث- التجديد.

Abstract :

The book "An Introduction to the Science of Occidentalism" is an intellectual project that seeks to understand the West as a reaction to the discourse of Western centrism or inflated Eurocentrism. This time, however, it is approached without surprise, astonishment, or psychological shock, but rather with a full awareness of the necessity to deconstruct this Western narrative, which is based on the myth of the white man as the savior from error and backwardness. It also emphasizes the importance of adopting a scientific methodology for reading the Western other as an object of study, by establishing the necessary distance between the studying self (Arab-Islamic) and the studied object (the West). This ensures epistemological objectivity and liberation from the biases of dual ideological discourse. The book's structure is comprised of three main axes : the formation of European consciousness, the structure of European consciousness, and the fate of European consciousness. In addition, there is an introductory chapter entitled "What Does the Science of Occidentalism Mean?" These three axes are distributed across seven chapters that review the history of Western thought and its philosophical schools, from its Greek and Roman sources in the Classical era to the contemporary stage in the twentieth century. Furthermore, the book analyzes and presents the epistemological and methodological foundations that guide European consciousness. **Keywords** : Westernization – Reverse Orientalism – European consciousness – Eurocentricity – Heritage – Renewal..

مقدمة

يندرج كتاب "مقدمة في علم الاستغراب"[1] للمفكر العربي حسن حنفي[2] في إطار مرحلة فكرية سعى فيها الخطاب العربي لتجاوز أسئلة النهضة العربية المقلقة، في محاولة تهدف إلى تقديم إجابات "علمية" بعيدا عن الأيديولوجيا العربية التي يتجاذبها اتجاهين أساسين: الاتجاه السلفي من جهة والاتجاه العلماني من جهة أخرى. ولقد عرفت سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي تناسل مشاريع فكرية عربية متعددة تدور جلها في دائرة قراءة التراث من جهة، وكيفية التعاطي مع الغرب من جهة أخرى، حيث نستحضر في هذا المضمار مشاريع مفكرين عرب معاصرين أمثال محمد عابد الجابري، عبد الله العروي، والطيب التيزيني، وحسين مروة، وعبد العزيز الحبابي[3] وغيرهم ممن حاولوا تقديم أجوبة فلسفية وفكرية لسؤال تقليدي: لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟ سؤال النهضة العربية الأولى في بدايات القرن التاسع عشر،

لقد حاول حسن حنفي في مشروعه لتجديد التراث[4] أن يؤسس لحقل معرفي أكاديمي جديد يشتغل على موضوع محدد هو دراسة الغرب كجهة حضارية مغايرة، من خلال التوسل بمناهج علمية بعيدا عن منطق الخطاب السياسي أو السجال الأيديولوجي. فالخلفية إذن التي دفعت بحسن حنفي لفتح هذه الجبهة الأكاديمية والفكرية في مشروعه هي تفسير الواقع العربي الإسلامي في آخر المطاف، وبالتالي الخروج من الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة العربية الإسلامية والمتجسدة في التخلف المركب الذي شمل كل البنيات المجتمعية، فضلا عن إرادة القطع مع الفكر العربي الإسلامي بشقيه "الحداثي" أو " السلفي" فكلاهما يشتركان في حالة النقل والتقليد سواء في تعاطيهما مع تراث الأنا أو تراث الآخر الغربي، فما الفرق بين من يقول قال ابن تيمية ومن يقول قال ماركس؟[5].

في هذا المضمار أيضا، جاء مشروع حسن حنفي لقراءة الغرب، كرد فعل على خطاب المركزية الغربية أو الأنوية الأوروبية المتضخمة، لكن هذه المرة بدون استغراب أو دهشة أو صدمة نفسية، ولكن بوعي كامل بضرورة تفكيك هذه السردية الغربية القائمة على أسطورة الرجل الأبيض المنقذ من الضلال والتخلف من جهة، وبأهمية تبني منهجية علمية لقراءة الآخر الغربي كموضوع، من خلال وضع المسافة الضرورية بين الأنا الدارسة (العربية الإسلامية) والموضوع المدروس (الغرب) تحقيقا للموضوعية المعرفية والتحرر من طوق تحيزات الخطاب الأيديولوجي المزدوج.

---

[1] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1991.

[2] نفسه.

[3] مشاريع جلها، في نظر حسن حنفي، تمثل مجرد تجليات لصورة الأنا في مرآة الآخر. ولا تعدو أن تكون هذه المشاريع في تعددها إحالة على تنوع النزعات والفلسفات الغربية المعاصرة، وكأمثلة لها يذكر حسن حنفي "الشخصانية الإسلامية" لعبد العزيز الحبابي، و"الماركسية العربية" لعبد الله العروي، و"النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية" لحسين مروة. انظر حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1991، ص 73.

[5] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 13.

فإذا كان الغربيون قد درسوا الشرق، ومن ضمنه العالم العربي الإسلامي، من خلال دوافع نفسية وسياسية أكثر منها أكاديمية ومعرفية، فإن الشرق (الأنا) مطالب هذه المرة بجعل الغرب (الآخر) موضوعا لدراسات أكاديمية متجردة من تلك الخلفيات التي وجهت المستشرق في تعاطيه مع الآخر الشرقي. فمحاولة الخروج من حالة البارانويا التي ميزت المستشرقين في دراستهم للحضارة الشرقية من جهة (عقدة العظمة)، والنهضويون العرب الأوائل (عقدة النقص) في تعاطيهم مع الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة من جهة أخرى (حيث نتج عن الدراستين معا صورة نمطية بعيدة عن الواقع وعن تفسيره بشكل علمي) شكلت أحد الدوافع الأساسية لكتاب مقدمة في علم الاستغراب.

في السياق نفسه، شكلت محاولة تجاوز مأزق الفكر العربي النهضوي في تعاطيه مع الحداثة الغربية ومفاهيمها أحد مداخل كتاب حسن حنفي. فهو محاولة لتمثل خطاب الحداثة والاستفادة منه دون الوقوع في مأزق التغريب كما حدث لدعاة القطيعة مع التراث والتماهي في الآخر من جهة، ولا التقوقع على الذات ورفض كل وافد حضاري مغاير من جهة أخرى[6]، ولكن أيضا دون السقوط في مطب التوفيق أو التلفيق كما حدث لدى رواد النهضة العربية الأولى في بداياتها.

تتشكل بنية الكتاب من ثلاث محاور أساسية، تكوين الوعي الأوروبي وبنية الوعي الأوروبي ثم مصير الوعي الأوروبي، بالإضافة إلى فصل أول بمثابة مقدمة نظرية معنونة بماذا يعني علم الاستغراب؟ وتتوزع المحاور الثلاثة على سبعة فصول تستعرض تاريخ الفكر الغربي ومدارسه الفلسفية، بداية من مصادره اليونانية والرومانية في العصر الكلاسيكي وصولا إلى المرحلة المعاصرة في القرن العشرين، فضلا عن تحليل وعرض الأسس الابستمولوجية والمنهجية التي يتحرك بوسطتها الوعي الأوروبي، ليخلص في الأخير إلى رصد مظاهر هذا الوعي ومآلاته. وسنحاول فيما يلي أن نعرض أهم الأفكار الكبرى لهذه المحاور من خلال قراءة تتجاوز مجرد العرض والتحليل إلى محاولات للتفسير والتأويل.

[6] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 25 و26.

أولا: ماذا يعني علم الاستغراب؟

يعتبر هذا الفصل بمثابة مقدمة نظرية[7] يحاول من خلالها الأستاذ حسن حنفي التأسيس والتأصيل لعلم جديد يهدف إلى تفكيك المنظومة الفلسفية والفكرية الغربية بالشكل الذي يتيح للفكر العربي والإسلامي استيعاب التراث الغربي دون استيلاب أو تماهي الذات مع الآخر، أي تجاوز حالة النقل إلى إبداع الاستغراب[8] بتعبير حنفي. فالحضارة الإسلامية القديمة، يقول حنفي، استطاعت تمثل واحتواء الحضارات السابقة دون فقدان هويتها[9]. وهو ما يراد اليوم لعلم الاستغراب من خلال بيان محدودية وتاريخية التراث الغربي ثم إعادة بناءه واستعماله، لذلك فجذور هذا العلم تمتد إلى القرن الأول والثاني الهجري حيث عمل الفلاسفة المسلمين على "نقد الوافد، وبيان محليته وارتباطه ببيئته، وبتعبيرنا رده إلى حدوده الطبيعية، وبيان تاريخيته، وكيف أنه حالة خاصة ليس لديه من العموم والشمول ما يمكن أن يصبح وريثا للحضارات البشرية جمعاء على عكس حضارة الأنا وقدرتها على ذلك"[10].

إن مهمات علم الاستغراب، بمعنى آخر، لا تهدف إلى الانفصال عن الغرب لكن ترنو تملك الآخر وإعادة بنائه ف"موقف الرفض صحيح من حيث المبدأ De Jure، فلا بداية إلا من الأنا، ولكنه خاطئ من حيث الواقع De Facto أي ترك الغرب كموضوع دراسة. وموقف القبول خاطئ من حيث المبدأ فعلاقة الأنا بالآخر علاقة تضاد وليست علاقة تماثل، ولكنه صحيح من حيث الواقع أي ضرورة التعلم والتعرف على حضارات الآخر، بصرف النظر عن مصدرها"[11].

وتتكون هذه المقدمة النظرية التي يستهل بها المفكر كتابه من ستة أجزاء يحدد فيها السياق الذي يندرج فيه الكتاب ضمن مشروع أكبر يهدف إلى تجديد الفكر العربي الإسلامي، كما يضع فيها بعض الأسس التي يقوم عليها العلم الجديد "الاستغراب" كرد على المركزية الأوروبية أولا، ثم مواجهة "التغريب" ثانيا، بالإضافة إلى التصدي للمشروع الاستشراقي الغربي، فضلا عن الخروج من حالة النقل والتقليد إلى تحقيق الإبداع والنهضة. ومن هذا المنظور، يأتي كتاب " مقدمة في علم الاستغراب" ضمن مشروع " التراث والتجديد" الذي شرع فيه حسن حنفي في بدايات ثمانينيات القرن الماضي[12]، أي ضمن الجبهة الثانية من مشروع التراث والتجديد، وهي الجبهة التي سمها حنفي ب "موقفنا من التراث الغربي"، إذا لا يكتمل أضلاع مثلث تجديد التراث وإعادة بناءه دون تفكيك التراث

---

[7] حيث يقتفي هنا الدكتور حسن حنفي آثار مجددين كبار في التاريخ الإسلامي والذين أسسوا لبروز علوم وحقول معرفية بكتابة مقدمات نظرية تضع المرتكزات النظرية والمنهجية، كما هو الشأن بالنسبة "الرسالة " للإمام الشافعي في تأسيس علم أصول الفقه، و"المقدمة "ابن خلدون لتأسيس علم العمران وغيرهم، انظر حسن حنفي، في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 21.

[8] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، ص 43.

[9] المرجع نفسه، ص 19 و20.

[10] المرجع نفسه، ص 45.

[11] المرجع نفسه، ص 14.

[12] حسن حنفي، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1980.

الغربي وتحديد موقف منه. فالتراث الغربي، وعمره لا يتعدى المائتي عام، أخذ حجما أكبر من حجمه الحقيقي في الوعي العربي المعاصر، وهو الأمر الذي يعتبر أحد مظاهر وتجليات "التغريب"[13].

ويهدف الكتاب في هذه الجهة إلى إعادة وصف وقراءة الوعي الأوروبي منذ مصادره الأولى، من خلال الوقوف عند سياقات النشأة ورصد مختلف مراحل واتجاهات تطوره وصولا إلى نهايته واكتماله[14]. كما يرنو كذلك حسن حنفي التأسيس لعلم يرد على الاستشراق، الذي رسخ صورة نمطية وسلبية للشرق وللعالم العربي والإسلامي بشكل خاص. وبهذا المعنى، فالاستغراب هو الوجه الآخر للاستشراق، فهو نقيضه ومقابله، وهو أيضا رؤية الأنا من خلال الآخر الغربي. كما يأتي هذا العلم في إطار حسم العلاقة الجدلية بين الأنا (الشرق) والآخر (الغرب) دون مركب نقص من جهة، أو مركب عظمة من ناحية أخرى[15]، وهي حالة البارانويا المزدوجة التي عنوت بها هذا المقال، حيث تحيل إلى هذا السلوك المضطرب في جدلية العلاقة بين الشرق والغرب، سواء في تعاطي الغرب مع الشرق بنوع من الارتياب والرغبة في الهيمنة والتحكم أو في تعامل الشرقيين مع التراث الغربي بنوع من الارتياب والخوف كذلك.

فالاستغراب، إذن وبهذا المعنى، هو ذلك العلم الذي يقرأ الغرب بشكل مغاير للقراءة المتحيزة التي وضعها الغرب لنفسه. إنها "رؤية الغرب من منظور اللاغرب"، فالقراءة الشرقية التي تعيد إنتاج ووصف صورة للغرب كما وضعها هذا الأخير لنفسه، لا تعدو أن تكون شكلا من أشكال احتواء الغرب للشرق[16] وهيمنته عليه. وهذه القراءة المعكوسة للاستشراق الذي ما فتئ ينتج ويعيد إنتاج مقولة مركزية الغرب او فكرة الأنوية الأوروبية باعتبار الحضارة الغربية حضارة مكتفية بذاتها، حيث تشكل وعيها تاريخيا بشكل مستقل ودون استمرار أو إفادة من حضارات أخرى، هذه السردية التي تعبر عنها مقولة كون الحضارة اليونانية أنتجت تراثا قطع مع مراحل الفكر الإنساني وشكل في ذاته معجزة أسست لحضارة لا مثيل لها واعتبرت نواة وبداية الحضارة الغربية الحديثة المهيمنة. فعلم الاستغراب، في هذا المضمار، سيتولى مهمة تفكيك هذه الأطروحة ومواجهتها، فالغرب تأسس على تراث ضخم أنتجته حضارات سابقة عليه، وهو امتداد لها وليس معجزة كما يدعي الغربيون. ومن هذا المنظور يتأسس علم الاستغراب الذي يجب أن يبرز دور الحضارات وخاصة الحضارة الإسلامية في نشأة وتطور الوعي الغربي[17].

شملت هذه المقدمة النظرية كذلك، بالإضافة إلى المنطلقات النظرية المؤسسة لعلم لاستغراب، مجموعة من المفاهيم والتصورات المنهجية التي يقوم عليها علم الاستغراب. فحسن حنفي يريد تأسيس هذا العلم على أسس

---

[13] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص. 15.

[14] قد يستغرب القارئ لهذا الرأي الذي يرى فيه حسن حنفي أن الوعي الأوروبي قد انتهى وانهار، فالأمر قد يبدو معقولا إذا ما علمنا أن المقصود من ذلك هو أن الوعي الأوروبي فقد بريقه وجوهره، القائمين على الفكر النقدي والعلمي وارتكن إلى المنطق الأيديولوجي، حيث أصبح الوعي الغربي يرتكز على سردية الحضارة الغربية المتفوقة التي وصلت إلى قمة التطور العقلاني الإنساني وأن ما عداها من الحضارات لا تعدو أن تكون مجرد أطراف تحوم حول المركز الغربي.

[15] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 29.

[16] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، ص 20.

[17] المرجع نفسه، ص 52.

"علمية" و"موضوعية" على النقيض مما انبنت عليه مناهج الاستشراق، منذ بدايتها في القرن السابع عشر، حيث طغى عليها المنهج التاريخي الإسقاطي[18] الذي يرجع كل تراث وإنجاز فكري وحضاري إلى المصادر اليونانية والإغريقية. فمنهج الاستغراب يجب أن يتحرر من الأيديولوجية القومية والعنصرية وأن يرتكز على "مناهج علمية مخالفة مثل مناهج اللغة وتحليل التجارب المعاشة وأيديولوجيا التحرر الوطني"[19]، وذلك بغية تجاوز العوائق المنهجية التي جعلت الاستشراق يرسخ عقدة الأنا المتضخمة للغرب المؤسسة للحركة الكولونيالية الحديثة. فالاستغراب في المقابل لا يهدف سوى إلى تحقيق توازن الذات والخروج من دائرة السيطرة والاستلاب الحضاري بعيدا عن أية عنصرية أو تمييز يقوم على العرق أو الانتماءات الثقافية والحضارية.

ثانيا: تكوين الوعي الأوروبي: قصة البداية والنهاية

تطبيقا لعلم الاستغراب الذي نظر له حسن حنفي، يبدأ هذا الأخير دراسته للوعي الأوروبي من خلال أربعة محاور أساسية تتعلق بمصادره وبداياته ثم ذروته وصولا إلى نهايته. وقد امتدت هذه الدراسة في خمسة فصول، بسط فيها مؤلف الكتاب تصوره لتاريخ الوعي الأوروبي بداية من تشكله إلى أفوله وتراجعه كحضارة تؤول نحو التراجع والانكماش. حيث كانت البداية في القرن الخامس عشر والسادس عشر مع الإصلاح الديني وعصر النهضة والديكارتية وكانت النهاية مع فلسفات ما بعد الحداثة وفلسفات النقد التي أرخت، حسب حنفي، لنهاية الوعي الأوروبي. ذلك الوعي الذي يصفه الكاتب بكونه وعيا تاريخيا محددا في الزمان بداية وتطورا ونهاية، حيث أمكانية دراسته من منطلق فلسفة التاريخ من طرف الأنا المتمايزة عنه[20].

1- مصادر الوعي الأوروبي: الظاهر والمسكوت عنه

يميز حسن حنفي بين مصدرين اثنين للوعي الأوروبي، الأول معلن من طرف الغرب والثاني غير معلن يراد إخفاءه أو عدم الاعتراف به من طرف الغربيين. فالمؤرخون الغربيون يرجعون كل منتجاتهم الحضارية إلى التراث اليوناني والإغريقي في المرحلة الكلاسيكية، بالإضافة إلى المصادر اليهودية والمسيحية، وينكرون في المقابل أي امتداد لحضارتهم في الشرق القديم أو في العصور الذهبية الإسلامية. في حين يؤكد حنفي على أن الحضارة الإسلامية والبيئة الأوروبية كلاهما يشكلان مصدرين من مصادر الوعي الأوروبي، وأن هذا المصدرين المخفيين لعبا دورا في تكوين الوعي الأوروبي إلى حدود القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر (بداية الوعي الأوروبي).

1.1 المصادر المعلنة:

تتأسس فلسفة التاريخ في الغرب على فكرة أساسية تتمثل في أن الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة تقوم على العقلانية اليونانية-الرومانية التي تشكلت في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. تلك العقلانية، في نظر المؤرخين الغربيين، التي شكلت قطيعة مع الحضارات المشرقية القديمة القائمة على الفكر الأسطوري. فهي بمعنى آخر المعجزة التي تحققت في التاريخ معلنة على بداية جديدة في تاريخ الفكر الإنساني القائم على لغة المفاهيم

[18] المرجع نفسه، ص 19.
[19] المرجع نفسه، ص 30.
[20] المرجع نفسه، ص 109.

والعقلانية بدل لغة الملاحم والخرافات. فالتراث اليوناني الروماني هو " المصدر الذي اعطى الوعي الأروبي تصوراته ومفاهيمه ولغته وبدايات علومه...اليونان باعتبارهم معلمي البشرية جميعا في المنطق والطبيعيات والأخلاق والسياسة... "[21].

وفي هذا السياق نفسه، يميز حنفي بين المصدر اليوناني عن الروماني، معتبرا الأول المصدر الأول والأساسي للنهضة الأوروبية الحديثة التي قامت على اللغة والتصور اليونانيين والقائمين أساسا على المفاهيم والعقلانية. في حين لعب المصدر الروماني دورا مهما كذلك في مجالات أخرى كالتشريع والعمران وكل ما له علاقة بالحضارة المادية الأوروبية الحديثة. فالوعي الأوروبي، بهذا المعنى، أخذ الروح من اليونان والبدن من الرومان حسب تعبير حسن حنفي. ومع ذلك يتابع حنفي فالوعي والثقافة الأوروبيتين، في نظره، كانا أكثر تأثرا بالرومان فقد ارتكنا إلى الحس بدل العقل والواقع عوض الخيال، الشيء الذي تجسد في النزعة التوسعية والكولونيالية الغربية الحديثة[22].

وفي حين يعتبر حنفي المصدر اليوناني الروماني مصدرا يمثل الجانب أو الرافد العقلاني العلماني، فهو يعتبر، في المقابل، التراث اليهودي المسيحي بمثابة المصدر الديني للوعي الأوروبي. وبامتزاجهما معا يشكلا بناء واحد تجسد في الحضارة الغربية الحديثة. ويعطي حنفي مثالا رمزيا لذلك في نشأة الموسيقى البوليفونية في أوروبا الحديثة التي تمزج بين الألحان الكنسية والألحان الشعبية [23] .

ويستشهد حسن حنفي، في هذا المقام، بآراء إدمون هوسرل الذي، وإن لم يذكر بشكل مباشر تأثير التراث اليهودي المسيحي على الفكر والفلسفة الغربية، فهو يقر بتأثير الفلاسفة المدرسيين[24] في بعض الفلسفات الحديثة، كالقديس أوغسطين وتوما الإكويني ونيقولا الكوزي...

1.2 المصادر غير المعلنة:

أما فيما يخص المصادر التي لا يعترف بها الغرب، والتي لعبت دورا في تشكيل الوعي الأوروبي يحصرها حسن حنفي في مصدرين اثنين، أولهما الحضارات الشرقية القديمة وخصوصا الحضارة الإسلامية التي لولا ترجمة علومها وكلامها وفلسفتها لما قامت للنهضة الأوروبية قائمة، وسبب عدم الاعتراف بذلك، في هذا السياق، هو مؤامرة الصمت[25] النابعة من الأنوية الأوروبية المتضخمة التي تضع الغرب في مركز العالم وتعتبر ما دونه من الشعوب والحضارات في دائرة التخلف والجهل والأساطير[26]. أما المصدر الثاني فهو الشروط الجغرافية والاجتماعية والسوسيوثقافية للبيئة الأوروبية، حيث لعبت دورا أيضا في بناء وتكوين الوعي الأوروبي، ولاسيما فيما يتعلق

---

[21] المرجع نفسه، ص 118.

[22] المرجع نفسه، ص 130.

[23] المرجع نفسه، ص 133.

[24] تمتد الفلسفة المدرسية، حسب حسن حنفي، من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر الميلادي، حيث عرفتها ذروتها في القرن الثالث عشر الميلادي كنتيجة مباشرة لترجمة التراث الإسلامي إلى اللاتينية. انظر حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 150.

[25] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق، ص 142.

[26] المرجع نفسه، ص 103.

بالسمة المادية النفعية للحضارة الغربية الأوروبية[27]. فالبيئة الأوروبية التي تعني، حسب حنفي، الموقع الجغرافي والظروف التاريخية وعادات الشعوب والقبائل التي سكنت أوروبا، ويعزى صمت الغرب عن هذا المصدر إلى ذلك التعالي الغربي عن دراسة ذاته بالمناهج التي يدرس بها الآخر " وكأن علم اجتماع المعرفة أو أنثروبولوجيا الثقافة لا يطبقان إلا على ثقافات الآخرين في الأطراف وليس على ثقافة الانا الأوروبي في المركز" [28].

ويقف حنفي عند الفلسفة اليونانية وحكمائها الأوائل، التي زعم بعض مؤرخو الغرب أنها شكلت قطيعة مع ما سبقها، معتبرا أن العديد من الفلاسفة اليونان تأثروا بل وتتلمذوا على علوم وفلسفات من سبقهم في الحضارات المشرقية البابلية والهندية والمصرية وغيرها، فلقد كان " فيتاغورس على اطلاع برياضيات الشرق وتصوفه، ودرس أفلاطون في جامعة منف ما يقرب من خمسة عشر عاما...إن كل الجوانب الإشراقية بالصوفية في الفلسفة اليونانية إنما هي امتدادا لحضارات الشرق بما في ذلك باطنية سقراط وتأملات طاليس والطبائعيين الأوائل في نشأة الكون والحياة"[29]. كما يستطرد حسن حنفي طويلا في هذا المضمار مبرزا تأثير العديد من المدارس والأفكار المشرقية القديمة على الحضارتين اليونانية والرومانية، فهتين الأخيرتين ارتبطتا باللغة والجغرافية مع حواضر مشرقية في آسيا والضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وغير ذلك. فالموقع الجغرافي وطبيعة السكان أدى إلى تكوين خاص لمنظومة القيم التي تؤطر السلوك والتفكير الأوروبيين، فالمناخ البارد وطبيعة التضاريس والقرب من البحار والمحيطات وغير ذلك جعل قيم المادية والحسية والمنفعية[30] تطغى على الحضارة الأوروبية.

2-بداية الوعي الأوروبي وتطوره: من "الأنا أفكر" إلى "الأنا موجود"

يتوخى الدكتور حسن حنفي في هذا المبحث الكشف عن البدايات الأولى لتشكل الوعي الأوروبي وكذا في مراحل تطوره إلى أن يصل إلى ذروته، وتمتد هذه المرحلة من القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر. ويعتبر الكوجيتو الديكارتي نقطة البداية للوعي الأوروبي الحديث، فهو محصلة لعصر النهضة والإصلاحات الدينية التي عرفها الغرب في القرن السادس عشر. ويعتبر ديكارت في هذا المضمار أب الوعي الأوروبي الحديث باتجاهيه المتناقضين سواء الاتجاه العقلاني المثالي أو الاتجاه التجريبي الواقعي. وذلك من منطلق كون الفلسفة الديكارتية قد تبنت الثنائية التقليدية التي عرفتها الفلسفة اليومانية، ثنائية الروح والمادة، حيث تم تقسيم الوعي الأوروبي الحديث إلى تيارين متضادين، الأول صاعد من الكوجيتو كالمثالية والذاتية والرومانسية والعقلانية وغير ذلك من المسميات، والثاني نازل إلى أسفل الكوجيتو كالتيار الواقعي والتجريبي والمادي، وبذلك، يقسم حسن حنفي، الوعي الأوروبي الحديث إلى اتجاهين: الاتجاه الديكارتي الصاعد، والاتجاه الديكارتي النازل[31].

وتعتبر الفلسفة الكانطية، في نظر حنفي، نقطة التحول التي ستدفع بالوعي الأوروبي نحو قمته وذروته. وتتجلى أهمية الكانطية في كونها أثرت بشكل كبير في مسار الفلسفة الأوروبية، حيث استطاع ايمانويل كانط أن يؤلف

---

[27] المرجع نفسه، ص 105 و106.

[28] المرجع نفسه، ص 144.

[29] المرجع نفسه، ص 136.

[30] المرجع نفسه، ص 147.

[31] المرجع نفسه، ص 280.

ويجمع بين الاتجاهين العقلاني والتجريبي[32] في اتجاه نقدي سيؤسس فيما بعد لميلاد فلسفة التنوير، التي سيكون لها دور كبير في تغيير السياقات الاجتماعية والسياسية في أوربا عبر إشعال فتيل الثورة الفرنسية. في أواخر القرن الثامن عشر.

3-ذروة الوعي الأوروبي ونهايته:

يعبر الكانطيون والهيغيليون، حسب حنفي، عن بداية العصر الذهبي للوعي الأوروبي وذروته، وقد عمل هؤلاء الفلاسفة بمختلف مدارسهم (الكانطية التقليدية، الكانطية الجديدة، اليسار الهيغيلي، الهيغيلية الجديدة...) على ترسيخ العقلانية العملية في مواجهة العقلانية النظرية الحديثة[33]. فقد كان ليهجل تأثيرا كبيرا على مسار الوعي الأوروبي وعلى الفلسفة الغربية الحديثة، فهو الذي أعطى للعقلانية الأوروبية استمراريتها وبدايتها الثالثة بتعبير حنفي[34]. ولا تقتصر مرحلة ذروة الوعي الأوروبي على هذه الاتجاهات فقط، فهذه الفلسفات تجسد ذروة التيار الديكارتي الصاعد، الذي سبق الحديث عنه في مرحلة بداية الوعي الأوروبي، والذي انبثق أساسا من إيمانويل كانت وهيجل. فهناك مظهر آخر لهذه الذروة ويتمثل في التيار الديكارتي النازل الذي يعبر عته أوغوست كونت وداروين وجون استيوارت مل والذي انبثق في مرحلة البداية عن فرانسيس بيكون ودافيد هيوم بالأساس. وقد تجسدت ذروة الوعي الأوروبي من الناحية الزمنية على طول الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين[35].

ويستطرد حسن حنفي في الفصل الرابع تحليله ودراسته لمختلف الاتجاهات والفلسفات باتجاهيها العقلاني والتجريبي. فيعرض للكانطية التقليدية وتيارات ما بعد الكانطية وإلى الهيجيلية باتجاهيها اليساري واليميني، ثم للفلسفة المثالية بكل أنواعها ثم الفلسفة الوضعية بمختلف تطوراتها وتمظهراتها وكذلك يعرض لمدارس ونظريات في الفكر السياسي كالليبرالية والاشتراكية[36].

وبهذا المعنى فإن حسن حنفي يذهب إلى اعتبار الوعي الأوروبي ابتدأ مع "الأنا أفكر" مع الكوجيتو الديكارتي وتطور من خلال تيارين متوازيين وهما العقلانية المثالية من جهة والتجريبية المادية من جهة أخرد وسيعرفان معا ذروتهما مع هيجل وشيلنج وأوجست كونت ومل، لتبدأ بعد ذلك مرحلة بداية نهاية الوعي الأوروبي لتتجسد هذه النهاية مع الشق الثاني من الكوجيتو الديكارتي "أنا موجود" أو في الفلسفة الوجودية[37].

ويواصل حسن حنفي في الفصلين الخامس والسادس تحليله ودراسته لمراحل وكيفيات انتقال الوعي الأوروبي في القرن العشرين من الأنا أفكر إلى الأنا موجود، حيث أصبح الغرب الأوروبي يهدم ذاته من خلال نقد ونقض المرتكزات والأسس والمفاهيم التي قام عليها الوعي الأوروبي الذي انشطر في بداياته إلى اتجاهين أساسيين ليعود من

---

[32] المرجع نفسه، ص 207.
[33] لمرجع نفسه، ص 250.
[34] المرجع نفسه، ص 332.
[35] المرجع نفسه، ص 332.
[36] المرجع نفسه، ص 293.
[37] المرجع نفسه، ص 313.

جديد إلى التجمع والوحدة التي تجد عنوان لها في نقد كل شيء، نقد العقلانية والمثالية ونقد التجريبية والوضعية، في محاولة لتجميعها كلها في اتجاهات جديدة عنوانها الظاهريات و الفلسفات التحليلية والبنيوية والتفكيكية[38] كان روادها فلاسفة القرن العشرين أمثال إدموند هوسرل و مارتن هايدغر وجون بول سارتر ورواد مدرسة فرنكفورد وغيرهم. ولا سيما ظاهريات هوسرل، في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، التي يعتبرها حنفي النهاية الحاسمة للوعي الأوروبي باعتبار أن كل ما جاء بعد من اتجاهات وفلسفات تعتبر في رأيه امتدادات وتطبيقات لها في مجالات الاجتماع والأخلاق والسياسة واللغة وغير ذلك من المجالات.

ثالثا: في بنية الوعي الأوروبي أو ثلاثية القطيعة والتنظير والعمل

يواصل حسن حنفي في الفصل السابع قراءته النقدية للتراث الغربي الأوروبي بعد أن عرض لمصادر هذا الوعي ومختلف مراحله، من خلال إبراز بعض العناصر التي يقوم عليها بنية الوعي الأوروبي عبر نقاش وتحليل مسهب لثنائيات ظلت تتحكم في الوعي الأوروبي من قبيل القطيعة والاستمرار، القيمة والواقع، العقل النظري والعقل العملي...

تعتبر بنية الوعي الأوروبي محصلة نهائية لتاريخ دام قرونا من الزمن، امتد منذ عصر النهضة إلى غاية بدايات القرن العشرين. ابتدأت حسب تعبير، حنفي، مع اتجاهي الفم المفتوح العقلانية والتجريبية وانتهت بفلسفات العدم والنقد. فالتكوين والتراكم سابق على اكتمال البنية المتكونة التي تأسست على تركيب الاطروحة ونقيضها بتعبير أقرب إلى المعنى الهيجلي للتطور التاريخي إلى أن يصل إلى المطلق. كما أن هذه البنية تشكلت عبر حضارة طردية تطرد المركز وتهرب منه باستمرار عكس الحضارة الإسلامية مثلا التي تعتبر حضارة مركزية. فبنية الوعي الأوروبي إذن، باعتبارها حصيلة التكوين ومحصلته، أنتجت عقلية لها مميزات وخصائص تجهل تتفرد وتتمايز عن باقي البنيات الحضارية الأخرى. لكنها في المقابل تعبر عن وعي خاص مثل كل وعي حضاري آخر، وليس له أي طابع إنساني عام أو كوني، كما يروج الغرب لذلك مؤسسا لمفردات التفوق والمركزية وغير ذلك. الأمر الذي انتهى، في نظر حسن حنفي، إلى العنصرية العرقية القائمة على اللون، لون البشرة الأبيض في مقابل الأسود والأصفر، غير الملون في مقابل الملون، المركز في مقابل الأطراف. ومن هذا المنظور تكون الوعي الأوروبي منذ البداية في عصر النهضة وتشكلت بنيته من خلال إحداث قطيعة معرفية بين الماضي والحاضر، فمختلف مجالات التقدم التي عرفها الغرب كانت مرهونة بهذه القطيعة، فبقدر ما تكون القطيعة مع الماضي يكون التقدم نحو المستقبل[39].

فإذا كان المشروع المعرفي، يقول حسن حنفي، الذي وسم الوعي الأوروبي في بداياته حتى ذروته يعطي الأولوية للعقل على العمل وللمعرفة على الوجود وللفهم على التغيير فالماركسية كانت سببا في انقلاب الأولويات وفي عكس هذه الثنائيات، فأصبح هذا الوعي في نهاياته محكوم بالنزعات الفلسفية اللاعقلانية من قبيل عدمية نتشه ووجودية كير كجارد ومختلف الفلسفات والنزعات التي أرخ لها جورج لوكاتش في كتابه "تحطيم العقل".

---

[38] المرجع نفسه، ص 314

[39] المرجع نفسه، ص 615.

وهذه القطيعة المعرفية بالأساس، خصوصا وأن المشروع الأوروبي ابتدأ مشروعًا معرفيًّا خالصًا. مشروع يقطع مع الموروث ويعيد إنتاج علاقاته مع العالم ويغير نظرته باستمرار للواقع. ويقف هنا حسن حنفي ليقارن بين بنية الوعي الأوروبي القائمة على المعرفة العقلية وعلى القطيعة والوعي العربي الإسلامي الذي لازال يحتفظ بالتراث القديم لتفسير الواقع فالتصورات القديمة للعالم ما زالت موروثة، والكتاب والتراث ما زالا سلطة، والواقع ما زال مغطًّى بنظريات قديمة يتم التسليم بها دون شك أو بحث عن بديل. وما زال الوئام النظري قائمًا بين الأنا والعالم[40]، بين الذات والموضوع وهو ما يسميه حنفي بالواقع المغطى في مقابل الواقع العاري عند الغرب. وهذا المعطى هو الذي جعل بنية الوعي الأوروبي تقوم على خاصية التنظير أو القدرة على إنتاج المفاهيم والفلسفات والتصورات طيلة مساره في «أنا أفكر» حتى النهاية في «أنا موجود». فقد أصبح العقل قادرا على فهم أنساقه الرياضية الخاصة وأنظمته الفكرية ومذاهبه الفلسفية، ولقد اعتبر ماكس فيبر وإدموند هوسرل، في هذا المضمار، التنظير أو التعقيل أحد السمات الجوهرية للوعي الأوروبي[41].

لقد أدت سياقات تطور الوعي الأوروبي إلى تكوين خاصية مميزة له تحولت إلى عنصر بنيوي، هذه الخاصية هي تاريخية الوعي. فكل العناصر التي ساهمت في تكوين بنيته عقلانية في التنظير، وعنصر القطيعة المعرفي التي مارستها الفلسفات والعلوم على ما سبقها، والفصل بين الواقع والقيمة ثم اتحادهما فيما بعد عند هيجل في المثالية المطلقة وشيلنج في فلسفة الهوية، فتوالد المذاهب الفلسفية، خاصة في محطاتها الأربعة البارزة مع ديكارت وكانط وهيجل ثم هوسرل، وغير ذلك أدى إلى جعل الحضارة أو الوعي الأوروبي تاريخيين تكونا في الزمان والمكان.

رابعا: في مآلات الوعي الأوروبي: من الغرب إلى الشرق عود على بدأ

بعد استعراض مسار الوعي الأوروبي قراءة ونقدا منذ إرهاصاته الأولى مع الإصلاح الديني لمارتن لوثر إلى نهاياته مع تفكيكية جاك دريدا، يخلص المفكر حسن حنفي إلى تراجع دور الحضارة الغربية وإلى أفولها. فكل ما تم بناءه يتم تفكيكه ونقضه ليس من الآخر ولكن من طرف الوعي الأوروبي ذاته. يعزو ذلك حنفي إلى أن هذا الوعي قد بلغ مرحلة من الأزمة أقصاها ولم يعد له ما يقدمه للحضارة الإنسانية فهو تجربة إنسانية تاريخية قطعت كل مراحل ولادتها وموتها. وخروج الوعي الأوروبي من هذا المأزق، في نظر حنفي، هو الاعتراف بالآخر وتجاوز حالة الاضطراب (البارانويا) في سلوكه اتجاه الآخر الشرقي، وإنهاء حالة الهيمنة والتعالي في تعاطيه مع باقي الشعوب. والاعتراف، أيضا، بدور الحضارات المشرقية القديمة والحضارة الإسلامية في تكوين الوعي الأوروبي.

ويستهل حسن حنفي الفصل الثامن من كتابه بجدل الأنا والآخر، ليكشف عن رؤيته لمسار تطور الحضارتين الإسلامية والغربية من منظور نقدي يتجاوز النظرة المتعالية للغرب (الآخر). فالغرب في العصر الوسيط (عصور الظلام) ليس هو الأنا في تلك المرحلة الزمنية، فالحضارة الإسلامية لها مسارها الخاص وتطورها المتميز، وعصور الظلام بالنسبة للغرب هي عصور ذهبية بالنسبة لهذه الحضارة التي تمتد لخمسة عشر قرناً عبر ثلاث مرحل كبرى، تتجسد الأولى في نشأتها حتى اكتمالها في القرن السادس الهجري الحضارة، ثم انهيارها خلال القرن السابع،

[40] المرجع نفسه، ص 617.

[41] المرجع نفسه، ص 623.

في مرحلة ثانية، حيث تراجع الابداع وابتدأت مرحلة التلخيص والتهذيب وتهديب التهذيب في المؤلفات العلمية والفلسفية والفقهية، وقد كان فكر أبو حامد الغزالي، في نظر حنفي، سببا من أسباب تراجع الحضارة الإسلامية. أما المرحلة الثالثة، في نظر حنفي، فتبتدأ في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مع النهضة العربية الحديثة وحركات الإصلاح والتحرر الوطني والثورات العربية وهي مرحلة تنذر بانبعاث جديد يشابه بداية الحضارة الإسلامية في القرنين الثاني والثالث الهجري[42].

أما مسار الآخر أو الحضارة الغربية فقد عرف بدوره ثلاث مراحل كبرى:

- المرحلة الأولى: تبتدأ من القرن الأول الميلادي إلى القرن السابع، وهي مرحلة أو عصر آباء الكنيسة، الذي سادت فيه، على المستوى الفكري والفلسفي، الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة التي عرفت ذروتها من فلسفة القديس أوغسطين.

- المرحلة الثانية: تبتدأ من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وهي مرحلة العصر المدرسي، الذي عادت فيه الحضارة اليونانية من جديد، فقد كان الإبداع في هذه المرحلة يونانيا أكثر منه مسيحيا.

- المرحلة الثالثة: وهي العصور الحديثة ولازال تمتد إلى اليوم منذ القرن الخامس عشر الميلادي، حيث بدأ الوعي الأوروبي الحديث وتشكلت فيه فيما بعد بنيته الثلاثية القائمة على ثلاثة اتجاهات تتمثل في العقلانية والتجريبية والاتجاه الثالث الذي يحاول الجمع بينهما.

لازال الغرب أو الوعي الأوربي يعيش نفس المرحلة اليوم ويعيش معها نهايته وتراجعاته، لكن بدون مستقبل ينذر بمرحلة رابعة تنهض به من جديد كما هو الامر في وعي الأنا. مما ينذر، حسب حنفي، باستسلام الغرب وخضوعه لحضارة أخرى صاعدة[43]. وإذا كان لكل حضارة مراحل تطورها المتميزة نشأة وصعودا وأفولا فإن الحضارتين الغربية والإسلامية خلال تطورهما عرفا جدلية في علاقاتهما حيث أنتجت هذه الجدلية صور نمطية جعلت هذه العلاقة علاقة مضطربة بل أدت إلى الاقتتال والصراع في أحايين كثيرة. وعلم الاستغراب في هذا المضمار يعمل على القضاء على الصور النمطية الصور الكريهة للآخر في ذهن الأنا والصور الكريهة للأنا في ذهن الآخر، ويروم في المقابل التأسيس لثقافة تقوم على الحوار وليس الصراع والتفاهم بدل التقاتل[44].

" لو كانت مظاهر العدم في الوعي الأوربي حقيقية ومظاهر الأمل فيه وهمية، صحوة ما قبل الموت، ولو كانت مظاهر الردة والانكسار في وعي العالم الثالث ظاهرية ومظاهر الأمل فيه حقيقية بإمكانياته التاريخية....(فهو) نقطة تحول المسار الحضاري البشري من الغرب إلى الشرق" بهذه الكلمات يعبر حنفي من خلال "مقدمة في علم الاستغراب" على مآلات الحضارة والوعي في الفترة المعاصرة في عنوانها البارز " انتقال الحضارة البشرية من الغرب

[42] المرجع نفسه، ص 698.

[43] المرجع نفسه، من الصفحة 700 إلى 703.

[44] المرجع نفسه، ص 711.

إلى الشرق" كما انتقلت قديما "من الشرق على الغرب". فالأمل اليوم في وعي شعوب العالم الثالث رغم بعض مظاهر انكسارها بعدما انتهى الغرب كذات حضارية تقود العالم[45].

وعلى سبيل الختم، وإذا كان حسن حنفي قد قرر في أكثر ما مرة في كتابه أن علم الاستغراب يواجه العديد من العوائق التي قد تبرر «محدوديته العلمية والموضوعية"، فعالم الأذهان ليس هو عالم الأعيان بتعبير حنفي، إلا أن كتاب "مقدمة في علم الاستغراب" يعتبر محاولة فكرية تأسيسية لوعي عربي إسلامي جديد ومن خلاله إلى تغيير جذري في الوعي الإنساني يقطع مع سردية تفوق الحضارة الغربية ويفتح المجال للشعوب الشرقية للمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية. وقد عمل حسن حنفي على تطبيق هذه التصورات النظرية من خلال دراسة نقدية لمختلف اتجاهات وتيارات الفلسفة الأوربية المجسدة لتكوين الوعي الأوربي ولبنيته ومن خلال مقارنتها وردها إلى مصادر فكرية وفلسفية تعود إلى تاريخ الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي.

لكن يبقى السؤال المطروح إلى أي مدى استطاعت محاولة حسن حنفي النجاح في تحقيق "حلم" علم الاستغراب. لقد أجاب حنفي في هذا المضمار عن ذلك بتصريحه بأن تحقيق رهانات هذا الحقل المعرفي الجديد يحتاج ربما لأجيال عديدة. فالتأسيس لعم وحقل معرفي بهذه الأهمية، يحتاج فعلا، إلى جهود مؤسساتية وجماعية وليس مجرد مشاريع فكرية فردية هنا وهناك. وفي هذا الإطار جدير بالذكر الحديث عن تجربة تقودها اليوم كلية الشريعة والدراسات الإسلامية التابعة لجامعة قطر والتي تهدف إلى انجاز «موسوعة الاستغراب" لفهم الغرب ودراسته وإدراك تفاصيله، من منطلق رؤية الذات الأصيلة، من خلال استيعاب مكوّنات الحضارة الغربية الحديثة، ومعرفة بنيتها الثقافية والسياسية والاجتماعية الجديدة.

وإدراك اختلافها عن حضارات أوروبا التي سادت قبل قيامه في مرحلة الحداثة، مع استحضار الجذور والأصول ودراسة علاقتها بمكونات الحضارة الجديدة[46].

[45] المرجع نفسه، من ص 763 إلى 773.

[46] الموقع الرسمي لجامعة قطر، شوهد بتاريخ 2025/12/10، على الرابط التالي:
https://www.qu.edu.qa/ar/Colleges/sharia/partnerships/scientific-chairs/Pages/encyclopedia-of-wonder.aspx

لائحة المراجع

- الخطيبي، عبد الكريم. النقد المزدوج، الرباط، منشورات عكاظ، 1980.
- حنفي، حسن. مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي، 1991.
- حنفي، حسن. التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1980.
- Arkon,Mohammed. « L'Humanisme arabe au 19 et 20 siecle d'apres le Kitab Al hawamil walsawamil », Studia Islamica, n°15, (January) ,1961.